كمال مُظهر أحمد
"مؤرخُ القرن العشرين"
الذي حلم بوطنٍ يجمع العرب والكرد

أ.د. محمود عبد الواحد محمود القيسي(*)

مقدمة

البحث الحالي محاولة لقراءة منجز أحد أعمدة العلوم الإنسانية في العراق في القرن العشرين، المؤرخ الراحل الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد (١٩٣٧-٢٠٢١)، الذي يُعد أحد مؤرخي الجيل الثاني البارزين الذين أعادوا تشكيل تاريخ العراق الحديث المعاصر وربطه بمحيطه الدولي والإقليمي، وبشكلٍ خاص بريطانيا وتركيا وإيران.

في السادس عشر من آذار من عام ٢٠٢١، أغمض مؤرخ العراق الراحل كمال مظهر أحمد عينيه لتغفو روحه بسلام بعد معاناةٍ مع المرض في السنوات الخمسة الأخيرة. أغمض الراحل عينيه في مدينة بون الألمانية، ومسقط رأسه كردستان تستعد لإحتفال خجول بنوروز في ذلك العام في ظل أزمة صحية وإقتصادية وسياسية خانقة يعيشها العراق والعالم منذ شباط ٢٠٢٠ بعد إنتشار أكبر وباء في مفتتح العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، كوفيد ١٩ أو كورونا. أغمض كمال مظهر أحمد عينيه وبلاده تستذكر مائة عام على تأسيس الدولة العراقية، وهو الذي كتب عن فيصل الأول، المؤسس الذي أرسى كياناً وحاول أن يبني أمة وهوية[١]. وهو ذاته الذي كتب عن ثورة العراق الأولى ضد الإحتلال البريطاني جامعاً ما يستطيع من نصوص توثق "دور الكرد في ثورة العشرين" في محاولة لتشكيل الوعي الوطني بهوية عراقية جامعة في وقت تخرج فيه أصوات نشاز تحاول تحجيم الثورة بزوايا طائفية أو عرقية[٢]، وهو المؤرخ الذي حاول إنصاف بكر صدقي، الضابط الكردي الذي قاد أول إنقلاب في الشرق الأوسط والعالم العربي دافعاً عنه شُبهات حلمه بتأسيس دولة كردية، فقد رأى في إنقلاب بكر صدقي جزءاً من الصراع السياسي في العراق في تلك الحقبة المبكرة من تأسيس الدولة العراقية[٣]. وكمال مظهر أحمد هو ذاته الذي كتب عن تاريخ إيران وعلاقتها مع العراق على نحوٍ منصف مفنداً كل الأيديولوجيات التي تحاول

(*) جامعة بغداد / كلية الآداب
mahmoudkaysi@yahoo.com

تصوير "الفرس" بعيداً عن حقائق التاريخ والثقافة في حمأة الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات[٤]. فمن يقرأ كتاباته عن تاريخ إيران يُدرك كم عانى وهو يرفض أن يماشي السياسة والأيديولوجيا السائدة. وهو نفسه من كتب عن نضال "الطبقة العاملة العراقية" في وقتٍ كانت الدولة تحاول تفتيت الطبقة العاملة بايديولوجيات زائفة للعدالة الإجتماعية بتحويل العمال إلى موظفين[٥].

كان كمال مظهر أحمد مؤرخاً للقرن العشرين، ونستطيع أن نُشير أنه كان مؤرخا للتاريخ العالمي World History، فقد كان يؤمن أن العراق جزء من محيطه الإقليمي والدولي، فتتبع بدقة تحول العراق من الإقطاع وبدايات إندماجه بالسوق الرأسمالية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية دخوله العصر الحديث.

وكمال مظهر أحمد في العراق أشبه بفرنان بروديل Fernand Braudel (١٩٠٢-١٩٨٥) في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن قيود الشمولية السياسية والفكرية لم تُتح له أن يُساهم، على نحوٍ واسع، في تشكيل الذهنية العراقية مثلما فعل بروديل في فرنسا بتأليفه مناهج التاريخ المدرسية في المدارس والجامعات.

كانت النظرة العالمية السائدة للتاريخ، لاسيما بين جيرانه من العلوم الإنسانية والإجتماعية، متدنية وترى في المؤرخين "أناسُ ظرفاء يكتبون للتسلية"[٦]. وقد عاب عليهم علماء الإجتماع منهجهم السردي. ففي ظل الثورة المعرفية التي كانت تشهدها العلوم الاجتماعية والإنسانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دعا مؤسس علم الاجتماع الفرنسي أيميل دوركهايم Emile Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧) المؤرخين إلى "الاكتفاء بجمع الرحيق وترك صناعة العسل لعلماء الاجتماع"[٧]، وقد رضي العديد من المؤرخين بهذا الدور، أي الاكتفاء بدراسة الوثائق وتفسيرها ونقدها والابتعاد عن النظريات والفرضيات في وقتٍ كانت الوثيقة مقدسة لمؤرخي التاريخ السياسي في عهد المدرسة المنهجية – الوضعانية في أواخر القرن التاسع عشر، في حين ظل علماء الاجتماع متعالين على المؤرخين، إلا أن موجة التغيير في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية كانت طاغية، تمخضت عن إحداث ثورة في الدراسات التاريخية منذ أواخر عشرينيات القرن العشرين، بظهور مدرسة الحوليات الفرنسية وما أنتجته من مدارس واتجاهات فكرية مالت إلى دراسة تاريخ المهمشين والبُنى الاجتماعية والاقتصادية. ولا تخفى التأثيرات الماركسية على آباء الحوليات، الذين أسسوا لتحول أحدث طفرة مهمة في مجالات الدراسات التاريخية. فلم يعد المؤرخون قانعون بدورهم السابق بالجمع والنقد والتفسير أو الظرافة، لاسيما بعد أن دخل المؤرخ الفرنسي البارز فرنان بروديل في نقاش معمق مع عالم الأناسة ليفي شتراوس Levi Strauss (١٩٠٢-١٩٢٩) حول البُنية وقدرة المؤرخين على خلق تعميمات تجمع بين حقول متنوعة[٨]. وقد نجح بروديل في

الستينيات في أن يتصدى لهذهِ النظرة المتدنية للتاريخ مثلما نجح كمال مظهر أحمد في تأكيد قدرة المؤرخين على وضع الفرضيات منذ سبعينيات القرن العشرين.

الكلمات المفتاحية: كمال مظهر أحمد، تاريخ العراق، كردستان، الأرمن، النهضة، تاريخ العراق المعاصر، تاريخ ايران، هبة قسطنطين، فرنان بروديل، الطبقة العاملة العراقية، كركوك، ثورة العشرين، ميكافيلي، الاستشراق الروسي.

كمال مظهر أحمد: البدايات

تأثرت الكتابة التاريخية في العراق بالتزامن مع تأسيس دولته الوطنية في مفتتح القرن العشرين بالتراث العراقي الرافديني وتأثير المدارس العربية الإسلامية التي شكلت أساساً قوياً لظهور إتجاهات جديدة في كتابة التاريخ العراقي والعربي والإقليمي والعالمي. وكان التأثير البريطاني واضحاً في تبلور رؤية عراقية في تشكيل التاريخ العراقي الحديث. فقد كان الاتجاه السائد في دراسة تاريخ العراق مع تأسيس دولته الوطنية عام ١٩٢١ هو الاتجاه الليبرالي، الذي مثله العروبيون القادمون من الحجاز من عراقيين وعرب والمحتلون البريطانيون، الذين حاولوا ربط تأسيس الدولة العراقية الحديثة بالحداثة الغربية ووصول القادة الجدد. وقد نظروا للعهد العثماني كونه عهداً متخلفاً، ورجعوا بأنظارهم إلى الدولة العباسية، ففيها كانت بغداد قلب العالم العربي الإسلامي الوسيط. وعلى نحوٍ مخالف للاتجاه الليبرالي، ركز الاتجاه الديالكتيكي الرومانطيقي لتاريخ العراق على الحقب طويلة الآماد. ويفسر الرومانطيقيون الاستمرارية بوجود الانماط البدائية والكلاسيكية في الأزمان الحديثة. وقد تأثرت هذهِ الرؤية بالمؤثرات الروسية التي بدأت تتغلغل إلى فهم المثقفين العراقيين لتاريخهم، لاسيما في الثلاثينات والأربعينات. وكان تأثير اليسار والمفاهيم الاشتراكية طاغياً على هذهِ المدرسة التي مثلها مفكرون ومؤرخون عديدون مثل عبد الفتاح ابراهيم وغيره. وهناك المدرسة الحضارية الرافدينية التي ركزت على السمات المستمرة لسكان وادي الرافدين، لاسيما الثقافية وطقوس الفلاحين وأساليب الري وما إلى ذلك. وقد أكدت هذهِ المدرسة على المكتشفات الآثارية، ويعد أحمد سوسة وطه باقر وفؤاد سفر وسامي سعيد الأحمد من أبرز رموزها[٩].

في ظل هذا الاختلاف في الاتجاهات الفكرية، كان كمال مظهر أحمد الحاج رسول المولود بالسليمانية في عام ١٩٣٧، قد بدأ دراسته الأولية فيها، وتأثر منذ نعومة أظفارهِ بالتاريخ، حيث يعلق أن علاقته بالتاريخ "بدأت وأنا في الصف الثاني المتوسط بالسليمانية عن طريق مدرسنا القادم من كويسنجق، وهو الأستاذ حمه ره ش، الذي كان يلقي علينا درس التاريخ بأسلوب مشوق للغاية"[١٠]. وكان قد صَقَلَ عشقه للتاريخ عند دراسته في دار المعلمين العالية، التي تخرج منها في عام ١٩٥٩، وهي مؤسَّسة علمية كانت بوتقة لصهر الشباب العراقي القادم من مختلف القرى والمدن العراقية على نحوٍ متزامن مع ما كان يقوم به باني الدولة العراقية الملك فيصل الأول الذي عمل جاهداً لصهر العراقيين في حاضنة المملكة والأمة العراقية الناشئة[١١]. وقد أكمل الشاب القادم من السليمانية تحصيله العلمي في الاتحاد السوفيتي بحصوله على شهادتي

دكتوراه في التاريخ في عام ١٩٦٣ وناؤوك (العلوم) عام ١٩٦٩ من (معهد الاستشراق) التابع (لأكاديمية العلوم السوفيتة)، وهي أعلى شهادة في الاتحاد السوفيتي، ليعود إلى العراق ويواصل العمل مع زملائه من الجيل الثاني، صالح العابد – بغداد، فاروق صالح العمر – البصرة، هاشم صالح مهدي – تكريت، وحسين محمد القهواتي – كربلاء، لإكمال ما شيده الجيل الأول المؤسس من الآباء[١٢]،كعبد العزيز الدوري وصالح أحمد العلي وزكي صالح ومحمد الهاشمي وجعفر خصباك وياسين عبد الكريم ومحمد محمد صالح الذين تخرجوا من الموشور الإنكلو سكسوني.

وقُدر لهذهِ التشكيلة من الطيف العراقي أن تقود أجيالاً قادمة أرست ملامح مدرسة تاريخية عراقية صارمة لم يُقدر لها التبلور حتى الوقت الحاضر. عاد كمال مظهر أحمد وهو يمتلك مهارات العصر المنهجية والفكرية واللغوية. فكان يمتلك من اللغات الروسية والإنكليزية والفارسية والتركية والعربية والكردية، وهي لغاتٍ ضرورية لدارس الشرق الأوسط. ودرَس كمال مظهر النظرية الماركسية منهجياً وفكرياً بتركيزها على العامل الاقتصادي، إلا انه لم يكتفِ بذلك، بل اتجه إلى الاطلاع على المناهج الأخرى، لاسيما مناهج الليبراليات الغربية. وكان كمال مظهر قد تشبع بألوان الطيف الأكاديمي في دار المعلمين العالية لأساتذة من وزن زكي صالح ومجيد خدوري وغيرهم ممن تخرجوا من المدارس التاريخية الأمريكية والغربية. مع ذلك، كان "الطريق الروسي" The Russian Road في المجال الفكري والأكاديمي راسخاً في العراق وفي بلدان شرق أوسطية أخرى، مثلما هو في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، وفقا لمنظور المؤرخ الأمريكي بيتر غران[١٣] فقد قدم المؤرخون الروس دراسات معمقة فيما يخص البنى الاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأوسط. وكانت الستينات والسبعينات حقبة للتوسع الثقافي الروسي في الشرق الأوسط تزامنا مع تنامي العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية خلال الحرب الباردة. فكانت كتابات نيكولا كوتلوف Nikola Katelov وفلاديمير لوتكسي Vladimir Lotski و أ. زخالفين وم.س. لازاريف وجليلي جليل واترابهم معروفة في العراق والعالم العربي، لاسيما بعد الثورات التحررية التي إجتاحت الشرق الأوسط والعالم العربي.

تبلور الوعي بالتاريخ الوطني والقومي

كان عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي المرحلة التي شهدت تبلور ما يمكن أن نطلق عليه "اتجاه كمال مظهر أحمد"، وهو ثمرة يانعة مزجت بين المدرسة الماركسية وما اكتسبه من مهاراتٍ منهجية وفكرية في المدرسة التاريخية السوفيتية، وبين قراءة جديدة للوثائق والمصادر العراقية والعربية بعيداً عن الأيديولوجيات القومية أو الإسلامية، وربما يُشكل ذلك نقطة الانطلاق للاتجاه الذي صاغه كمال مظهر أحمد في البحث التاريخي. فعلى الرغم من خلفيته اليسارية والماركسية الراسخة والممتدة إلى جيله من فرسان دار المعلمين العالية: صالح العابد وهاشم التكريتي وحسين القهواتي وفاروق صالح العمر، فانه كان موضوعيا في تحليلاته وفرضياته وتفسيراته لتواريخ

العراق وإيران وتركيا. وكان على جيل "دار المعلمين العالية" أن يشق طريقة بصعوبة في ظل تسيد المدرسة الإنكلو-سكسونية للمشهد التاريخي العراقي منذ بداية تبلور اتجاه عراقي في فهم التاريخ بتفرعاته الغربية الثلاثة: القديم والوسيط والحديث. فكان غالبية المؤرخون قد جاءوا من مشارب المدارس الغربية والأمريكية.

من يقرأ كتبه: كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى[١٤]، وصفحات من تاريخ العراق المعاصر، ودراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر يُدرك إن كمال مظهر أحمد قد اختط لنفسه مجالاً معقداً من الدراسات التاريخية، وبنى لنفسه سمعة أكاديمية مرموقة أثارت إهتمام الكثير من المستشرقين والمهتمين بالدراسات الشرق أوسطية. ركز العديد من مؤلفاته على تاريخ الشعب الكردي ونضاله لنيل حقوقه، وفي الوقت ذاته قدم دراسات مرموقة عن التعايش بين العرب والكرد. وفي الوقت ذاته، كان كمال مظهر أحمد مأخوذاً بدراسة الواقع الإقليمي لجوار العراق: تركيا وإيران والدول العربية، لأنه كان يدرك الترابط بين ماضي العراق وحاضره ومستقبله وتواريخ هذهِ البلدان. إلى جانب إدراكه لأهمية فهم الدول الكبرى الفاعلة: بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي والمانيا التي كانت عنصرا فاعلاً في تاريخ الإقليم والعالم والعراق. وبهذا وجه طلبته على مستوى الدراسات العليا لسبر أغوار هذهِ التشكيلة من "التاريخ العالمي" والإنطلاق من قلب الشرق الأوسط: العراق[١٥].

ومن المهم الإشارة أن عقدي السبعينيات والثمانينيات وامتداداً إلى التسعينيات من القرن الماضي قد شهدت مماحكات فكرية تتعلق بالحرفة في الأقسام المتناظرة في الجامعات العراقية، لاسيما بين المدرستين الغربية (الأوربية والأمريكية) والمدرسة الشرقية (الروسية ودول المنظومة الاشتراكية)، فشهدت هذهِ المرحلة تكتلات بين خريجي المدرسة الأمريكية والغربية إزاء الروسية، واستخدمت كل منهما مهاراتها الأكاديمية لإثبات التفوق. ومن الطريف إن هذهِ التكتلات الفكرية والأكاديمية تجاوزت الطائفة والقومية لتجمع الشيعي والسني والكردي والتركماني في اتجاه فكري واحد؛ لأن ثقافته تنتمي إلى هذهِ المدرسة أو تلك، وكان ذلك صحيا من خلال التنافس للإبداع على مستوى البحث الأكاديمي والتدريس، إلا انه لم يخلو من بعض المهاترات الشخصية بين بعض المتخصصين. وربما كنت تسمع في الستينيات أو السبعينيات وجود مجموعة كاليفورنيا أو مجموعة أكسفورد أو كمبردج أو السوربون أو المجموعة الروسية والمصرية، وهو دليل على قطف بعض ثمار النهضة الأكاديمية للحقب السابقة. مع ذلك، ومع الجو الفكري المشحون والتكتلات الأكاديمية وفقاً للمدارس والخلفيات الأيديولوجية التي وسمت الجيل الثاني الذي انتمى له كمال مظهر أحمد، فقد أطلت السياسة برأسها بقوة محاولة تقريب من يقتربون من أيديولوجية الحكم التي كانت مزيجاً من رؤية قومية مُشبعة بمفاهيم أيديولوجية تحاول إعادة كتابة التاريخ وفقا لمنظور البعث. انزوت غالبية الأسماء المعروفة وابتعدت

عـن هذهِ الرؤيـة المؤدلجـة، وكان كمال مظهر أحمد وفـاروق العمر وصالح العابد وهاشـم التكريتي وصادق السوداني وحسين القهواتي ومرتـضى النقيب قـد واصلـوا كتاباتهم وفقا لقواعد الحرفة وبألوان المدارس التي تخرجوا منهـان فأنتجـوا أعـمالاً أكاديميـة مرموقـة وأشرفوا على رسـائل وأطروحات تاريخية في الثمانينيات والتسعينيات تفتخر بها الأكاديميا العراقيـة عن تاريـخ العراق وإيـران والدولة العثمانيـة وتركيا وأوربا وامتـدادات جغرافية وتاريخية أخرى[١٦].

كانـت حقبـة الثمانينيـات والتسـعينيات مفعمة بالنشاط الفكري للمؤرخين العراقيين، على الرغم من القيود والخطوط الحمراء التي فرضها النظـام القائم المشـحون برؤية قومية متشـددة ومسحة اشـتراكية تداعب المدارس الغربية أحياناً وفقاً لعلاقات العراق الخارجية وحاجته للدعم الغربي، لاسيما خلال الحرب العراقـة الإيرانيـة التي ألقت بضلالهـا القاتمة عـلى المشـهد الفكـري العراقـي. وقـد كانت أفكار اليسـار والمدرسـة الشرقيـة التي ينتمي لهـا كمال مظهـر أحمـد وجيله مـن المتخرجين من المـدارس الشرقية، لاسـيما زميلـه ورفيق دربه هاشـم صالـح التكريتي، تشـق طريقها بصعوبـة بالغة بسـبب الجدار الراسـخ الذي شيدته المدرسـة الإنكلو – أمريكية على مدى تاريخها الطويل في العراق والشرق الأوسط. فقـد كان الرؤسـاء المشـيدون لجامعـة بغداد مثـل متي عقراوي وعبد الجبار عبد الله وعبد العزيز الدوري من خريجي هذا الموشور[١٧].

في هـذا الجـو الأكاديمـي المشـحون فكريـاً، كان كـمال مظهر أحمد في قمة نشـاطه الأكاديمـي، تحاكـي موضوعاتـه المبتكرة عن المثقف ومتطلبات المرحلة، والنهضة الأوربية ١٩٧٨، والقضيـة الكرديـة التـي تناولهـا في مؤلفـات ومقـالات متعددة خـلال عمله في المجمـع العلمي الكـردي وفي جامعة بغداد، وكلهـا موضوعـات تُحاكي الحـاضر والماضي وتحـاول أن تقـدم وصفـات فكريـة لأزمات العراق السياسـية والانسـدادات بـين القوى السياسـية. كان يحـاول أن يجـد أمثلـة مـن التاريخ ليبين البُنى الاجتماعية المتلاحمة بأمثلةٍ معبرة تسـتند إلى النص والوثيقـة والمقابلات الشـخصية مع مـن بقي من العهود السـابقة. فكتـب عن دانتـي وكوميديـاه الإلهية ليجعل منها مرآة للواقـع العراقي، وكتب عن مارتن لوثر وتومـاس مـور ويوتوبيـاه وايرازموس ومدحـه للغبـاوة وشكسـبير واصطدامـه بالواقع، وكتب عن "هبة قسـطنطين" وزيف تنـازل القياصرة عن الحكم بمحض إرادتهم، وكلها إيحاءات معبرة ونقد غير مباشر للواقع العراقـي سياسـياً واجتماعيـاً وفكريـاً. فقـد حاول في كتابه "النهضة" أن يدحض فرضية تنازل قسـطنطين الكبير عن الإجـزاء الغربية مـن الإمبراطويـة الرومانيـة للبابويـة وكأنـه بذلـك يدحـض مسرحية التنـازل عن الحكم في العراق في عام ١٩٧٩. فقد تحول البابوات وفقـا لميكافيلي "مـن قساوسـة إلى قطاع طرق وذئاب". وأصبـح عمل لورينزو فالا "بداية للدراسـات التاريخية الانتقادية العلمية"[١٨]. لقـد شـكل كتـاب "النهضـة" إدانة مسـترة للواقـع السـياسي العراقـي ومحاولـة تنويرية للرأي العام العراقي. وكان هذا الكتاب، على الرغـم مـن صغر حجمـه دراسـة موضوعية للنهضة الأوربية وأثرهـا عالمياً. ومما له مغزاه

أن يصدر الكتاب في عام ١٩٧٩، وهو العام الذي شهد وصول صدام حسين إلى سدة الحكم في العراق، وكان لذلك تأثيرٌ كبيرٌ على مستقبل العراق وعدم إستقراره حتى الوقت الحاضر. ومما له مغزاه أن الكتاب صادر عن وزارة الثقافة العراقية وفيه إدانة مستترة لمسرحية التنازل عن الحكم بمرآة التاريخ الغربي والنهضة الأوربية التي قوضت مفهوم المقدس كنسياً وجعلت الإنسان قيمة عليا للمجتمع وفكره أساساً للتقدم.

ومما له مغزاه أيضاً أن يصدر كتابه عن "ميكافيلي والميكافيلية" في دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد في عام ١٩٨٤، في ذروة التطبيق للمفاهيم الميكافيلية. فقد ذكر في مقدمة الكتاب: "لا شك في ضرورة دراسة مختلف حلقات التاريخ الإنساني، ولاسيما ما يتعلق بالجانب الفكري لذلك التاريخ، فإن من شأن دراسة كهذهِ تجسيد دروس وعبر بإمكانها، فيما لو أخذت بنظر الإعتبار، المساعدة على تخطي الكثير من مساوئ الماضي وتجنيب خلق الله صوره القاتمة"[١٩].

كانت كتاباته تنطلق من الحاضر إلى الماضي ولم تكن من أجل الماضي لذاته. كانت تربطه علاقات وطيدة مع قادة الفكر والتاريخ والسياسة آنذاك: مثل عبد الرزاق الحسني وفؤاد عارف ومسعود محمد وناجي طالب وغيرهم. أثارت موضوعيته الكثير من النقد لدوافع متعددة عقائدية أو فكرية أو قومية. فلم يتورع في كتابه "كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى" في تحميل الكرد جانباً من المسؤولية في المذابح الأرمنية[٢٠]، فكان الفصل الخامس قد تناول "الكرد والدم الأرمني المراق"، قد ناقش اضطهاد الأرمن من العثمانيين والأغوات الكرد بدفع من السلطات العثمانية، وعلى نحو خاص السلطان عبد الحميد الثاني(١٨٧٦-١٩٠٩). وناقش بموضوعية ما تعرض له الرمن من مذابح منذ عام ١٨٩٤، وعام ١٨٩٥، وسنوات الحرب العالمية الأولى، وتحريض الكرد على المشاركة في جزء من هذهِ المذابح. ويؤكد أن "قضية مذابح الأرمن كانت أكبر وأعمق من أن تكون حصيلة الأحاسيس الدينية العمياء لدى الكرد ونتيجة لمخاوفهم"[٢١]. مع ذلك، يُشير كمال مظهر أحمد إلى مواقف أخرى مشرفة للعديد من الكرد لمساعدة الأرمن والدفاع عنهم وإدانه ما تعرضوا له، لاسيما موقف جريدة كردستان وصاحبها عبد الرحمن بدر خان ومواقف كرد متنفذون وبسطاء آخرون[٢٢]. ويخلص في هذا الفصل من كتابه إلى أن "الأرمن لم يكونوا سوى ضحية قصر النظر لبعض الفئات الحاكمة ولألاعيب الدول الكبرى وأطماعها التي تجسدت أكثر بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها"[٢٣].

وقد أثارت رؤيته الموضوعية في إمكانية التعايش بين الكرد والعرب؛ "لأن ما يجمع العرب والكرد من المشتركات أكثر مما يفرقهم..." المتشددين من الجانبين. مع ذلك، هو نفسه الذي كتب بعد ٢٠٠٣ عن "كركوك حكم التاريخ والضمير" الذي حاول فيه أن يقدم أدلة جمعها على مدى عمره في المهنة تؤيد وجهة نظره "بكردستانية كركوك" مما أثار حتى المقربين منه من العرب[٢٤].

وحتى لو إختلفنا مع كمال مظهر أحمد في رؤاها في هذا الكتاب بمجلديه، فاننا لا نستطيع أن نفصل بين صرامة المهنة والعاطفة وإخلاصه لأصوله الكردية. فقد كان يردد دائماً: "إذا لم أكن كردياً صالحاً لن أكون عراقياً صميمياً". وربما يمثل هذا الكتاب من وجهة نظر العراقيين العرب "سقطة فكرية" لكمال مظهر أحمد لم تكن موفقة وليست في وقتها المناسب، كما أكد الكثير من زملائه تلميحاً لا تصريحاً، إلا أنها مثلت بالنسبة إلى الكرد وثيقة تاريخية "لكردستانية كركوك". مع ذلك، فإن من يعرف كمال مظهر أحمد من المقربين منه ومن طلابه يُدرك جيداً أن هذا الكتاب مثل جزءاً من التوجه الفكري له. فقد كان يردد دائماً حتى قبل ٢٠٠٣ أنه يعتز بعراقيته إلا أنه في الوقت ذاته يؤمن أنه لا بد أن يكون للكرد وطنهم المستقل في يوم ما دون أن يؤثر ذلك على الأخوة العربية – الكردية. وإنه كان يؤكد أن الكرد فقدوا حلمهم بدولة مستقلة بسبب حسابات الدول الكبرى في مفتتح القرن العشرين.

وقد توقف المؤرخ الأمريكي بيتر غران متأملاً تجربة كمال مظهر أحمد في الأكاديميا العراقية، فأكد أنه منذ أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، كان الاتجاه الماركسي واضحاً في الدراسات الإنسانية. ويناقش غران فكرة كتاب "دور الشعب الكردي في ثورة العشرين" للدكتور كمال مظهر أحمد، الصادر في بغداد عام ١٩٧٨، مؤكداً أن الكتاب قدم رؤية وثائقية جديدة دحضت الرؤية السابقة لعروبة ثورة العشرين، وفتح نقاشاً عن إندماج الكرد ضمن النسيج العربي والتفاعل مع مشكلاته. فكان الكتاب محاولة لإعادة بناء النسيج التاريخي العراقي. ووفقاً إلى بيتر غران، كان هذا الكتاب موضوع نقاش بين البغداديين في أواخر السبعينيات[٢٥].

وعلى الرغم من القبضة الشمولية الصارمة على الإصدارات الأكاديمية، كان الحقل الآخر الذي دخله الدكتور مظهر أحمد، وفقاً إلى غران، هو جدليات الصراع الطبقي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وهو المجال الذي نجحت فيه المدرسة الماركسية بقوة، وكان كتابه البارز في هذا الجانب: "الطبقة العاملة العراقية: التكوين وبدايات التحرك"[٢٦]، الصادر في بغداد في عام ١٩٨١. وقيمة هذا العمل انه يسلط الضوء ليس على حقبة العشرينيات والثلاثينيات فحسب، وإنما يمتد على نحوٍ غير مباشر إلى الأوضاع المعاصرة أيضاً. وفي ضوء رؤية مقارنة، يبدو واضحاً التشابه بين كتابة التاريخ العراقي والسوفيتي. ففي كتابة التاريخ السوفيتي، هناك توتر طويل الأمد بين المدرستين الديالكتيكية الرومانتيكية والوضعية. وقد ظهر هذا التوتر في الكتابات عن تاريخ العراق أيضاً. وإذا كان كمال مظهر قد عكس طروحات المدرسة الديالكتيكية الرومانتيكية (التفاعل بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية)، فإن مؤرخين آخرين عكسوا مفاهيم المدرسة الوضعية (الواقعية التي تركز على تأثير الرياضيات والسوسيولوجيا وتؤكد على الحقيقة والمثالية مبتعدة عن الدين والميتافيزيقيا). استطاع الدكتور كمال مظهر أن يكون موضوعياً في تناوله لتاريخ الطبقة العاملة العراقية والنقابات العمالية، وكان ذكياً في توقفه في الثلاثينيات ليأخذ حريته في التحليل ونقد النصوص وتفسيرها ليسمح

لكتابه أن يرى النور[٢٧].

ومن المفارقات أن يصدر هذا الكتاب "الطبقة العاملة العراقية" في بداية ثمانينيات القرن العشرين، على نحوٍ مشابه لصدور كتاب "النهضة"، وفي كليهما نقد مستتر لأيديولوجية النظام القائم ومقولاته السياسية. فقد جاء كتاب "الطبقة العاملة العراقية" ليسرد بالتفصيل وبتحليل ماركسي عمق طبقة العمال وتأثير تاريخها الطويل في بُنية العراق السياسية ليقوض أطروحة "تحويل العمال إلى موظفين" التي دعا اليها النظام بتبريرات ضعيفة في ثمانينيات القرن الماضي للتخلص من عبء هذهِ الطبقة الفاعلة في تاريخ العراق المعاصر[٢٨]. لقد كان كمال مظهر أحمد ذكياً للتخلص من الرقابة الواسعة للدولة بتوقفه عند عام ١٩٣٢، في محاولةٍ ليأخذ حريته في التحليل والنقد للاوضاع السياسية القائمة آنذاك. فيُشير أنه "يمكن تقسيم تأريخ الطبقة العاملة العراقية قبل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ إلى ثلاث مراحل أساسية، الأولى منها مرحلة التكوين التي يبدأ إطارها الزمني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والثانية هي المرحلة التي شهدت بدايات التحرك العمالي وتعود بدايتها إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، ويجوز أن نجعل من عام ١٩٣٢ نهاية لها باعتبار تلك السنة مرحلة انتقالية من تاريخ العراق السياسي شهدت أفول عهد الإنتداب وبروز ما أصطلح على تسميته بالإستقلال. أما المرحلة الثالثة فهي التي شهدت بروز الطبقة العاملة على المسرح السياسي كقوة فاعلة في مجمل حركة التحرر الوطني للشعب العراقي"[٢٩]. وقد أكد في تقديمه للكتاب أنه سيدرس المرحلتين الأولى والثانية من تأريخ الطبقة العاملة، وترك المرحلة الثالثة التي أشار ضمناً أنها تمتد إلى الوقت الحاضر بما يتناقض مع ايديولوجية النظام الذي حاول تشويه الدور النضالي للطبقة العاملة العراقية. ودعا في نهاية التقديم إلى ضرورة أن تتبع هذهِ الخطوة "خطوات أخرى حتى يصبح في الإمكان ايفاء هذا الموضوع المهم حقه"[٣٠].

ومن الطريف الإشارة أن هذا الكتاب لم يكن المشروع الرئيس لكمال مظهر أحمد في أواخر سبعينيات القرن العشرين، بل كان طلبه الحصول على تفرغ علمي لعام كامل لتأليف كتاب عن "تاريخ إيران الحديث"، إلا أن تصاعد الإحتقان الايديولوجي دفع مجلس كلية الآداب إلى رفض هذا المشروع وطلب تغيير الموضوع. فإضطر كمال مظهر أحمد إلى التحول من "تاريخ إيران" إلى "تاريخ الطبقة العاملة العراقية"، وكِلا الموضوعين خط أحمر في ظل الصراع الداخلي والخارجي في العراق في مفتتح ثمانينيات القرن العشرين. ولم يفت كمال مظهر أحمد، المعروف بجرأته ونقده المستتر أحياناً والواضح في أحيانٍ أخرى أن ينتقد هذا التوجه اللاعلمي في مقدمة لمقالة نشرها في مجلة (آفاق عربية) بعد أن إكتشف وثائق تخص تاريخ العراق وإيران في وثائق القياصرة الروس المحفوظة في الأرشيفات الروسية تبين مساومات الدول الكبرى، لاسيما بريطانيا وروسيا، على مصالح العراق الوطنية، فكان عنوان المقال: "العراق وإيران بين سازانوف وغراي وثائق جديدة"، نشرها في مجلة (آفاق عربية). ومن الطريف أن هذا النقد المستتر قد مر على وسائل الرقابة في ذلك الوقت[٣١]. فقد

أشار كمال مظهر أحمد في تقديمه لمقالته في مجلة "آفاق عربية" بدأت أهتم، بحكم إختصاصي، منذ أواخر العام ١٩٦٠ بجوانب من تأريخ إيران الحديث. وبعد أن كلفني قسم التأريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد تدريس هذا الموضوع إزداد اهتمامي به، فإقترحت "إيران في العهد القاجاري ١٧٩٢-١٩٢٥" موضوعاً لتفرغي العلمي الذي وافق عليه مجلس القسم عام ١٩٧٨ ليرفضه مجلس الكلية بناءً على إقتراح أحد الجغرافيين على أساس أنه "لا يتفق مع خطط التنمية القومية" (علامة تعجب) فسكت الجميع، (وليس السكوت بالضرورة علامة الرضا)، مع أن المكتبة العربية، والعراقية منها بالتحديد، لا تعاني من فقر مدقع فيما يخص تاريخ إيران حسب، بل فيها، أيضاً، ما لا يشرف العلم على أي حال"[٣٢]. وقد علم أحد زملائه المتنفذين بما حصل فتبنى الموضوع الذي إقترحه الدكتور كمال مظهر أحمد، وحثه بإلحاح على انجازه. ويعبر كمال مظهر أحمد بمثل هذهِ الكلمات المعبرة: "فعدت بصعوبة إلى حبي القديم، ومن أجله حزمت في العطلة الصيفية الأخيرة أمتعتي – قلمي وأوراقي، وسافرت على نفقتي الخاصة إلى المدينة الثانية المهمة للقياصرة الروس، موسكو، الذين كان لهم "ألف ليلة وليلة" مع إيران العهد القاجاري، لأرجع وفي حقيبتي لقطات ثمينة من بينها مراسلات وزيري خارجية دولتين كبريين ومساوماتهما اللئيمة على حساب الشعب العراقي في فترة تأريخية حرجة كان يتقرر فيها مصير العباد والبلاد"[٣٣]. وقد ختم نقده اللاذع بهذا المثل العربي المعبر "أراك، يا سعد، مستهزئاً، فإنك، والله لم تورد الإبِلَ هكذا"[٣٤]. وبهذا، فقد شكل هذا المقال الصادر في عام ١٩٨٢، وفي حمأة الحرب العراقية الإيرانية عملاً جريئاً وتعبيراً عن المؤرخ والمفكر الحيوي الذي لا يتنازل عن مبادئه وموضوعيته. فهو نقد لاذع للبيروقراطية المتنفذة التي تنظر للعلم بموشور الأيديولوجيا.

أكمل كمال مظهر أحمد مشروعه بإصدار كتاب عن تاريخ إيران الحديث والمعاصر ضمن مقدمته انتقاد للكتابات عن تاريخ إيران والأخطاء الواضحة فيها. فقد حاول أن يُخرج التاريخ من الأكاديميا ليكون عاملاً في بناء مفهوم الأمة العراقية. فعلى الغرار نفسه، انتقد في هذا الكتاب المغالطات التي درس فيها تاريخ إيران في المصادر العربية، في وقت كانت الحرب العراقية – الإيرانية مستعرة والأيديولوجية السياسية في قمة يقظتها. ففي كتابه "دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر"، الصادر في بغداد عام ١٩٨٥، إنتقد بشكل لاذع ما صدر من مؤلفات ودراسات عن تاريخ إيران مدفوعة بدوافع أيديولوجية، وهي "ما لا يشرف العلم على أي حال"[٣٥]. وأكد "إن المراجع العربية المتوفرة عن تاريخ إيران مشحونة بأغرب الأخطاء فيما يخص أسماء الأعلام والمواقع". ويصر في مقدمة الكتاب "إن ما حوته دراسات الأساتذة والكتاب وكذلك بعض الرسائل الجامعية من أخطاء علمية كان المفروض أن لا تقع فيها"[٣٦].

كان كمال مظهر أحمد في غالبية كتاباته يؤسس لحقول واعدة في البحث الأكاديمي، لكن هذهِ الحقول ترتبط بقوة بتاريخ العراق

الحديث والمعاصر والدول المجاورة له، لاسيما إيران وتركيا[٣٧]. فمقالته الرائدة "رأي للمناقشة الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر"[٣٨]، المنشورة في مجلة الحكمة أواخر التسعينيات، قدمت فرضية تعتمد على البُنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية كأساس للتحول والتغيير. وهو في هذهِ المقالة الموسعة والمعمقة يقترب في رؤيته وتفكيره من أجيال مؤرخي الحوليات: مارك بلوك ولوسيان فيفر وفرنان بروديل وجاك لوغوف، الذين طوروا فرضيات الآماد القصيرة والمتوسطة والطويلة، ووظفوا العلوم الاجتماعية والإنسانية الاخرى لتقديم فرضيات تاريخية وتعميمات راسخة. حاول كمال مظهر أحمد في هذهِ المقالة أن يحفر في البُنية الاجتماعية والاقتصادية للعراق الحديث والمعاصر منذ العهد العثماني وحتى تأسيس الحكم الأهلي في عام ١٩٢١، مثلما فعل فرنان بروديل Fernand Brudel في بُنية البحر المتوسط[٣٩]، وجاك لوغوف Jacques Le Goff (١٩٢٤-٢٠١٤)، الذي رأى جذوراً قروسطوية في التاريخ الأوربي المعاصر[٤٠]. مثلت هذهِ المقالة المطولة والمعمقة نفوذه إلى بُنية المجتمع العراقي لتحديد متى دخل العراق إلى الحداثة وكيف ارتبط بالسوق الرأسمالية التي كانت تتغلغل إلى بُنية العراق الإقطاعية. فحدد النصف الثاني من القرن التاسع عشر يكون بداية لدخول العراق عصره الحديث وبداية القرن العشرين لدخوله التاريخ المعاصر.

وتمثل هذهِ المقالة الموسعة قدرة كمال مظهر أحمد على أن يجمع الرحيق ويصنع العسل، كما فعل فرنان بروديل فرفع من قدرة المؤرخين، لا كما إدعى دوركايم الذي أراد للمؤرخين أن يبقوا جامعين للرحيق، بمعنى جمع النصوص وترتيبها ونقدها وتحليلها وترك الفرضيات لعلماء الإجتماع. بدأ كمال مظهر أحمد مقالته بالحفر في أصول تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث وفقاً للمفهوم الأوربي ورأى في ذلك تعميماً ربما لا ينطبق على تاريخ الشرق الأوسط عموماً والعراق على نحوٍ خاص. ثم درس تأثير النهضة الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وعصر التنوير والثورة الصناعية في القرن الثامن عشر وامتدادات الإستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر ليقرر أن ذلك كان له تأثيرات كبيرة على واقع العالم وأحدث تحولات مماثلة تختلف وفقاً لدرجة تقبل وتطور المجتمعات[٤١]. ويستنتج كمال مظهر أحمد في نهاية بحثه: "إن المجتمع العراقي قد تغير تغيراً نوعيا واضحاً في جميع الميادين في المرحلة التي تبدأ في حدود العقدين الأولين من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإن افرازات ذلك التغيير نقلته إلى مرحلة جديدة تختلف في معظم ظواهرها، وخصائصها عن المراحل التي سبقتها، فيما تشبه في العديد من معطياتها، مع الفارق بحكم عوامل روحية ومادية كثيرة لا مجال لتعدادها، ما شهدته العديد من أقطار أوربا الغربية والوسطى في عصر النهضة. من هنا، يمكن أن نؤشر العقدين المذكورين بداية لتأريخ العراق الحديث، وأن نؤيد رأي أستاذنا الدكتور زكي صالح في جعل الحرب العالمية الأولى بداية للمعاصر من ذلك التاريخ"[٤٢]. وقد شكلت هذهِ المقالة أساساً لموضوع موسع

على مستوى الماجستير لأحد طلابه النابهين، هو محمد جبار إبراهيم الجمال، الذي كتب عن "بُنية العراق الحديثة ١٩٦٩-١٩١٤"، وحاول في عمله الأكاديمي أن يركز على العوامل الداخلية التي خلقت التحول في العراق الحديث[٤٣].

وقد رسخ كمال مظهر أحمد تشبعه بالتاريخ الإجتماعي بتعاونه وتشجيعه لقسم الإجتماع لإنتاج أول عمل أكاديمي عن "سوسيولجيا تاريخ العراق المعاصر"[٤٤]، كأول أطروحة دكتوراه في السوسيولوجيا التاريخية. ولم يكن إلا كمال مظهر أحمد ليتصدى لهذا الزواج الكاثوليكي بين التاريخ وعلم الإجتماع ليتوج ما أسسه رائد علم الإجتماع العراقي علي الوردي.

وعلى الرغم من صرامة كمال مظهر أحمد المؤرخ المحترف وقسوته مع طلابه لتعليمهم الحرفة، فإنه الإنسان والعاشق للوطن بشقيه الكردي والعربي ومكوناته الأخرى وبفسيفسائه الملون يمثل جانباً آخرَ من شخصية هذا المؤرخ المتجذر في تراب الرافدين. وربما من الممتع أن نتذكر هنا ذلك الجيل الذي ينتمي اليه كمال مظهر أحمد، وأقصد جيل دار المعلمين العالية، الذي انصهر مهنياً ووطنياً في بوتقة الأمة العراقية. وربما أن رفقة أكثر من نصف قرن جمعت بين فاروق صالح العمر (البصرة)، صالح العابد (بغداد)، هاشم صالح مهدي (تكريت)، حسين محمد القهواتي (كربلاء)، ومعلمنا كمال مظهر أحمد (السليمانية) دليل على ما يمكن أن تقدمه المؤسَّسة من صهر للقيم الوطنية بما توفره من مهارات وما تضخه من مفاهيم حداثوية بعيداً عن الايديولوجيا التي دمرت أمما وأحرقت شعوباً. وكم معبرة هذهِ الكلمات التي أريد أن أختتم بها هذهِ المقالة لأحد فرسان دار المعلمين العالية، حسين القهواتي، الذي كتب مقالةً عن زميل صفه هاشم التكريتي، اللذان ما زالا يقطعان مسافاتٍ متعرجة وأكثر طولاً من أجل اللقاء خارج الوطن، وما زالت علاقتهما قوية كنخل العراق لم تخربها أيديولوجيات الحكام. يقول القهواتي للجيل الجديد من المؤرخين: "وأخيراً، أريدك يا ولدي أن تتأمل في صداقة بين تكريت وكربلاء، دامت أكثر من ستين عاماً وتتحرى أسبابها وترى هل تستحق أن تكون نموذجاً للتعميم بين جيلك في العراق اليوم"[٤٥]. وليسمح لي أستاذي القهواتي أن أكمل أن صداقتكم بين السليمانية وبغداد والبصرة وكربلاء وتكريت شيدت حلم الأمة والوطن العراقي ولم تستطع السياسة أن تلوث صداقة حواضر العراق بألوانها وأطيافها الجميلة.

استيقظ الدكتور كمال مظهر أحمد منذ الصباح الباكر في يوم العاشر من نيسان من عام ٢٠١٤؛ لأنه كان على موعد مع زملاءه وطلابه من البصرة إلى زاخو بألوان الطيف العراقي. لقد قطعوا أميالاً ليحتفوا بدخوله عمر السبعين. وقد لبس حلته الجميلة ليستقبل ذاكرته وأحلامه ووطناً كبيراً أسمه العراق وحلماً مزدهراً اسمه كردستان، فكمال مظهر أحمد جبل شامخ كأحمد آوى ونخلة باسقة ممتدة الجذور في شط العرب، وهذا هو الحلم الذي حاول كمال مظهر أن يرسخه بين طلبته في جامعات العراق من البصرة إلى كردستان. وكان هذا اللقاء في

أربيل للمشاركة في احتفالية كبرى أقامها له تلامذته.

لقد حقق كمال مظهر ما رآه دوركهايم مستحيلاً بأن يقوم المؤرخ بجمع الرحيق وصنع العسل في الآن ذاته. ولم يكن التاريخ إلا حرفة صارمة يعلمها لتلاميذه. ووفقاً لذلك، فإن نتاجات هذا المؤرخ العراقي البارز يمكن أن تقارن مع ما قدمه بروديل ولوغوف وهنري بيرين ولوتسكي وكتلوف وغيرهم من كبار المؤرخين الأوربيين. وسيظل العراق، الوطن والإنسان والأمة، بحاجة إلى ذاكرة المؤرخ ورؤيته للتأسيس لحاضر أفضل ومستقبل جامع. لقد أغمض كمال مظهر أحمد عينيه وما زال العراق يُصارع أطماع قوى الإقليم المحيط حوله والقوى الكبرى وتنافس أبنائه حول أين تكون الرئاسة. أغمض كمال مظهر أحمد عينيه ولم يرَ العراق الذي كان يحلم به. فهل تتحقق أحلامه الوردية بوطنٍ مزدهر وشعب آمن. هذا ما سيظل حلم كل عراقي من أقصى العراق إلى أقصاه. أرقد أستاذي قرير العين فقد عبدت لنا طريقاً للبحث الأكاديمي علنا لا نضل الطريق.

الخاتمة

مثل كمال مظهر أحمد نتاجاً لتأسيس فكري تزامن مع تأسيس «الأمة العراقية» والدولة الحديثة. وقد مثلت "دار المعلمين العالية" بوتقةً لبناء جيل جديد من العلماء الذين أسسوا لذاكرة تاريخية متنوعة، إلا أنها تصب في هدف فكري واحد هو رفد حاضر الأمة الجديدة ببنيتها التاريخية والفكرية منذ العصور القديمة وحتى النصف الأول من القرن العشرين.

مثل اليسار حاضنة لغالبية مفكري هذا الجيل (الجيل الثاني) الذي امتلك الوعي لاحقاً للتفاعل مع المتغيرات الفكرية عالمياً والتماهي مع تطورات المجتمع العراقي. وأثرت "دار المعلمين العالية" وأحداث العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتفاعلات الحركة الكردية والدراسة في الإتحاد السوفيتي في بلورة شخصية المؤرخ كمال مظهر أحمد.

وأصبحت كلية الآداب حاضنة لكمال مظهر أحمد وجيله الثاني الذين عشقوا هذا المنبر المهني مثلما عشقوا "دار المعلمين العالية". واعتمد كمال مظهر أحمد المناهج الروسية وتفاعل مع المناهج الغربية ليضع الأساس لتيار فكري تاريخي يمكن أن نطلق عليه "أتجاه كمال مظهر أحمد"، الذي تمثل بإعادة قراءة وثائق تاريخ العراق المعاصر بروح الحاضر وبتوظيف مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولاسيما علم الاجتماع.

وضع كمال مظهر أحمد فرضيات جديدة تحاول أن تبين طبيعة التحولات البنيوية "طويلة الآماد" متأثراً بذلك بالتحليلات الماركسية التي حاول أن يطبقها على التاريخ

العراقي، مثل التحولات البُنيوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتأثيرات المجددين في الفكر العراقي المعاصر ودور الإتجاهات المحافظة والتقدمية في تشكيل الوعي العراقي. وقد تفرعت تحليلاته وفرضياته في نتاجات طلبته على مدى أكثر من خمسة عقود.

انعكست طروحات كمال مظهر أحمد ومساراته البحثية على طلبته الذين شكلوا استمراراً لاختبار فرضياته، مثل: مساهمات عبد الرزاق النصيري "دور المجددين"، وقاسم الجميلي "العراق والحركة الكمالية"، وعادل البلداوي "الحزب الوطني الديمقراطي والوطني التقدمي"، ونادية ياسين "الاتحاديون"، ومحمد الجمال "بُنية العراق الحديثة". وحاول كمال مظهر أحمد المواءمة بين العوامل الخارجية والداخلية في تشكيل بُنية العراق الحديثة.

لم يدرس كمال مظهر أحمد أثر التيارات الإسلامية والإسلام السياسي؛ بسبب طبيعة البيئة السياسية التي عاصرها منذ تشكل وعيه السياسي والفكري في الخمسينيات فصاعداً، ولو قدر له أن يعيش طويلاً وأن تُسعفه صحته لقدم دراسات معمقة عن تأثير الحركات الإسلامية في البُنية العراقية. فقد ركز كمال مظهر أحمد في كتاباته، لاسيما منذ سبعينيات القرن العشرين على تأثير اليسار والإتجاهات الليبرالية والقومية والمحافظة في البُنية السياسية والفكرية والاقتصادية العراقية. فلم يساعده الوضع السياسي المضطرب ومنع الدولة التعاطي مع مصادر الحركات الإسلامية في ربطها في سياق تطور المجتمع العراقي.

أنصف كمال مظهر أحمد العهدين الملكي بأعمال أكاديمية عن رموزه (عبد الرزاق النصيري، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٣٢، وسعاد رؤوف شير عن "نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٤٥"، وعادل البلداوي عن "كامل الجادرجي والحزب الوطني التقدمي")، والعهد الجمهوري الأول (محمد حديد وحزبه الوطني التقدمي)، ورسائل واطروحات انصفت عبد الكريم قاسم والاتجاه اليساري والحزب الشيوعي العراقي في ذروة النظام الشمولي في العراق. ولم يغفل كمال مظهر أحمد الجانبين الاقتصادي والاجتماعي (مثل أطروحة عبد الله شاتي عبهول عن "التخطيط الإقتصادي في العراق في العهدين الملكي "مجلس الإعمار" والجمهوري الأول "تجربة عبد الكريم قاسم").

مثل عراق ما بعد ٢٠٠٣ "اصطداماً بواقع لم يتوقعه" مثلما مثل "اصطداماً بالواقع" لرجال النهضة الأوربية مثل وليم شكسبير وسيرفانتس وايرازموس الذين رأوا أحلامهم تصطدم بواقع مختلف. فأغمض عينيه دون تحقيق ثنائية الوئام العربي الكردي لبناء وطن مستقر.

لقد علمنا كمال مظهر أحمد في العراق "كيف نجمع الرحيق ونصنع العسل"[٤٦]، مثلما فعل فرنان بروديل في فرنسا، عكس ما أراده ايميل دوركايم من المؤرخين وهو الإكتفاء بجمع الرحيق وترك صنع العسل لعلماء الإجتماع. فكانت كتاباته متماهية مع طروحات الوردي وناقدة لها كما فعل بروديل مع شتراوس. وبذلك فقد نجح كمال مظهر أحمد في تحقيق الزواج الكاثوليكي بين العلوم الاجتماعية والإنسانية ليوظفهما جميعاً في

خدمة نصه التاريخي. عسى أن يرى مؤرخو الجيل الثالث أحلام كمال مظهر أحمد وجيله بعراق مزدهر ومستقر.

لقد كان كمال مظهر أحمد مؤرخاً ومفكراً عضوياً استطاع من خلال كتاباته أن يؤثر في جيل كامل من المؤرخين والمتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويكفي أن إتجاهه قد إمتد من البصرة الفيحاء إلى جبال كردستان وأصبح له امتدادات عربية وعالمية باتساع ما تم تناوله من آرائه ومؤلفاته التي ترجم بعضها إلى لغاتٍ متعددة. ويكفيه فخراً أن يُعاد طبع المجموعة الكاملة لمؤلفاته في كردستان العراق وباللغتين العربية والكردية التي صدرت المجموعة الأولى منها باللغتين العربية والكردية في عام ٢٠٢٣. وهي الثنائية التي حلم بها كمال مظهر أحمد بوطن يجمع العرب والكرد في بوتقة واحدة، مثلما حلم علي الوردي بثنائياته عن المثالي والواقعي والأعظمية والكاظمية والتقليد والحداثة. رحم الله أستاذنا الباري كمال مظهر أحمد في ذكرى وفاته. وسيظل عالماً عراقياً خالداً يذكرنا بوطن إسمه العراق يكفي جميع أبنائه.

الهوامش والتعليقات

١. كمال مظهر أحمد، "موقف الملك فيصل الأول من المسألة الكردية"، في كتاب: بناء الدولة العربية الحديثة تجربة فيصل بن الحسين في سورية والعراق، اعداد وتحرير هند ابو الشعر، منشورات جامعة آل البيت، ١٤٢٠ه/ ١٩٩٩م، ص٥٤١-٥٥٦.

٢. كمال مظهر أحمد، دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية، بغداد، مطبعة الحوادث، ١٩٧٨؛ كمال مظهر أحمد، ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي، ط١، بغداد، مطبعة الزمان، ١٩٧٧.

٣. أنظر: "بكر صدقي والمسألة الكردية"، في: كمال مظهر أحمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر دراسات تحليلية، ط١، بغداد، منشورات مكتبة البدليسي، ١٩٨٧، ص١١٧-١٣٠.

٤. كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥.

٥. كمال مظهر أحمد، الطبقة العاملة العراقية التكوين وبدايات التحرك، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١.

٦. محمود عبد الواحد القيسي، مدرسة الحوليات الفرنسية وتجديد كتابة التاريخ، بغداد، مكتبة عدنان، ٢٠١٣، ص٤٦-٤٧.

٧. وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ اتجاهات – مدارس – مناهج، ط١، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢، ص٢٠٠-٢٠١؛ محمود عبد الواحد القيسي، علي الوردي والسوسيولوجيا التاريخية، ط١، بغداد، ٢٠١٤، ص٣٧-٣٨.

٨. لمناقشة ذلك أنظر: محمود عبد الواحد القيسي، مدرسة الحوليات الفرنسية وتجديد كتابة التاريخ.

٩. من أهم المؤلفات التي ناقشت منجزه الأكاديمي كتاب المؤرخ الأمريكي بيتر غران. أنظر:

Peter Gran, Beyond Eurocentrism A New View of Modern World History, 1st ed., New York, Syracuse University Press, 1996.

١٠. النص مقتبس من الدكتور عادل البلداوي الذي استقاه من مقابلة لرشيد الخيون مع الدكتور كمال مظهر أحمد. أنظر: عادل تقي عبد البلداوي، الإستشراق في فكر المؤرخ العراقي المتنور كمال مظهر أحمد، بغداد، مطبعة الكتاب، ٢٠٢٣، ص١٤.

١١. محمود عبد الواحد محمود، "المؤرخ صالح العابد والتاريخ العثماني قراءة في نصوصه ومنهجه"، في: محمود عبد الواحد محمود، صالح العابد ذاكرة التاريخ الحاضرة، ط١، بغداد، دار ومكتبة عدنان، ٢٠١٣، ص٥٦-٥٨.

١٢. المصدر نفسه، ص٥٧-٦٠؛ أحمد ناجي، «الدكتور كمال مظهر أحمد دراسة تاريخية»، مجلّة كلية التربية، العدد ٤، ص٨٧-٨٨.

١٣. أنظر:

Peter Gran, Op. Cit., P.85.

١٤. كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة: محمد الملا عبد الكريم، بيروت، دار

الفارابي، ط٣، ٢٠١٣.

١٥. للتفاصيل عن هذهِ التوجهات، أنظر: حميد المطبعي، «كمال مظهر أحمد أربعة عقود من الجهود المضنية لاستنهاض ما فات»، ملحق صحيفة المدى، العدد ٢٣١٩، السنة الثامنة، الخميس، الأول من كانون الأول، ٢٠١١.

١٦. مشاهدات الباحث عندما كان طالباً في قسم التاريخ، كلية الآداب - جامعة بغداد في الدراسات الأولية (١٩٨٦-١٩٩٠) والعليا (١٩٩١-٢٠٠٣).

١٧. شيرين رحيم كريم الجابري، متي عقراوي ودوره الفكري والتربوي في العراق (١٩٠١-١٩٨٢)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة بغداد، ٢٠١٣.

١٨. كمال مظهر أحمد، النهضة، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٩، ص٤٦-٤٨.

١٩. كمال مظهر أحمد، ميكافيلي والميكافيلية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٤، ص٥-٦.

٢٠. كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الثانية، ص٢٤٥-٣٠٨.

٢١. المصدر نفسه، ص٢٩٥.

٢٢. المصدر نفسه، ص٢٩٨-٣٠٧.

٢٣. المصدر نفسه، ص٣٠٨.

٢٤. كمال مظهر أحمد، كركوك وتوابعها حكم التاريخ والضمير دراسة وثائقية عن القضية الكردية في العراق، ج١، حكومة اقليم كردستان، وزارة الثقافة، ٢٠٠٠.

٢٥. أنظر:

Peter Gran, Op. Cit., pp.85-86.

٢٦. كمال مظهر أحمد، الطبقة العاملة العراقية: التكوين وبدايات التحرك، بغداد، ١٩٨١.

٢٧. أنظر:

Peter Gran, Op. Cit., pp.85-86.

٢٨. كمال مظهر أحمد، كردستان الطبقة العاملة العراقية التكوين وبدايات التحرك، ص٥-١١.

٢٩. المصدر نفسه، ص٨.

٣٠. المصدر نفسه، ص٨-١١.

٣١. قارن بين مقالته في مجلَّة آفاق عربية ومقدمته لكتاب دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، فقد حذف جزءاً من مقدمته الانتقادية في الكتاب، إلا انه أعاد جزءاً مهماً من المقالة في مقدمة الكتاب والتي تحمل نقداً لاذعاً للقائمين على المؤسسات الأكاديمية العراقية في ذلك الوقت، ثم نشر البحث كاملاً ليمثل الفصل الثالث من الكتاب. للمقارنة، أنظر: كمال مظهر أحمد،" العراق وإيران بين سازانوف وغراي وثائق جديدة"، مجلَّة آفاق عربية، السنة الثامنة، العدد ٢، تشرين الأول ١٩٨٢، ص٢-١٠؛ كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، المقدمة والفصل الثالث، ص٣-٥، ص٨٥-١٠٠.

٣٢. كمال مظهر أحمد،" العراق وإيران بين سازانوف وغراي وثائق جديدة"، ص٤.

٣٣. المصدر نفسه، ص٤.

٣٤. المصدر نفسه، ص٤.

٣٥. لمناقشة ذلك أنظر: كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، ص٤-٦.

٣٦. المصدر نفسه، ص٤-٥.

٣٧. قدم كمال مظهر أحمد مؤلفات أخرى جمعت بين تخصصات متنوعة، فقد حقق مذكرات فؤاد عارف وأحمد مختار بابان، كما كتب عن انتفاضة ١٩٢٥ في تركيا وتاريخ الدول الكبرى بين الحربين العالميتين. للتفاصيل، أنظر: كمال مظهر أحمد (تحقيق وتقديم)، مذكرات فؤاد عارف، أربيل، آراس، ٢٠٠٩؛ كمال مظهر أحمد، مذكرات أحمد مختار بابان آخر رئيس وزراء في العهد الملكي في العراق، بغداد، ٢٠١٣؛ كمال مظهر أحمد، انتفاضة ١٩٢٥ في تركيا، أربيل، كاوا للنشر والتوزيع، ٢٠٠١؛ كمال مظهر أحمد، محاضرات في تاريخ الدول الكبرى بين الحربين العالميتين، بغداد، دار الحداثة للطباعة والنشر، ٢٠٢٠.

٣٨. كمال مظهر أحمد، "رأي للمناقشة الإطار الزمني لتأريخ العراق الحديث والمعاصر"، مجلَّة الحكمة، العدد ٥، السنة الأولى - تشرين الثاني (نوفمبر) كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨، ص١٤-٤٠؛ وقد أعيد نشر المقالة في كتاب من قبل طلبته: كمال مظهر أحمد، رأي للمناقشة الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر، بغداد، مطبعة الكتاب، ٢٠٢١، ٩٦ صفحة.

٣٩. أنظر كتاب فرنان بروديل الذي يعد من الجيل الثاني لمدرسة الحوليات الفرنسية:

Fernand Braudel, La Mediterranee et le

monde mediterranee a l'epoque de Phillipe II, 3 Tomes, Paris, Armand Colin, 1949; Fernand Braudel, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II, 2vols., Trans.by Sian Reynolds, New York, 1972.

وكان هذا الكتـاب موضوعا لإطروحته للدكتوراه. صدرت الطبعـة الفرنسـية الأولى بثلاثـة مجلـدات عـام ١٩٤٩، وصدرت الترجمة الإنكليزيـة بمجدلين عام ١٩٧٢، ثم صدرت طبعات متعددة باللغتين الفرنسـية والإنكليزية وترجم إلى لغات أخرى.

٤٠. أنظـر كتابـه: "نحـو عصـور وسـطى أخـرى: الزمـن والعمل والثقافة في الغرب، الذي صدر بطبعته الفرنسية عام ١٩٩١.

Jacques le Goff, Pour un autre Moyen Age: Temps, travail et Occident 18 essais, Paris, 1991.

٤١. أنظـر: كـمال مظهر أحمد، رأي للمناقشـة الإطار الزمني لتاريـخ العـراق الحديـث والمعـاصر، ص١٤-٣٨؛ والكتاب المشار له في هامش ٣٨ بنفس العنوان، ص٩-٧١.

٤٢. أنظـر: كـمال مظهر أحمد، رأي للمناقشـة الإطار الزمني لتاريـخ العـراق الحديـث والمعـاصر، ص٣٩-٤٠؛ والكتـاب المشـار لـه في هامـش ٣٨ بنفـس العنـوان، ص٧١-٧٤.

٤٣. أنظـر: محمـد جبـار ابراهيـم الجـمال، البنيـة الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الفكر السياسي العراقي الحديث (١٨٦٩-١٩١٤)، رسـالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعـة بغـداد، ٢٠٠٦؛ وقد نُشرت في كتاب بعنوان: "بنية العراق الحديثة وتأثيرها الفكري السياسي ١٨٦٩-١٩١٤"، بغداد، بيت الحكمة، ٢٠١٠.

٤٤. ثنـاء محمـد صالح عبـد الرحيـم، سوسـيولوجيا تاريخ العـراق المعاصر، أطروحـة دكتوراه غير منشـورة، كلية الآداب - جامعـة بغـداد - قسـم الاجتمـاع، ١٩٩٩؛ ونشرت الأطروحة كتاباً بعنـوان: ثناء محمد صالح عبد الرحيم، سوسـيولوجيا تاريخ العـراق المعاصر، بغداد، دار ميزوبوتاميـا، ٢٠١٣. وهـي أول باحثـة في علـم الإجتمـاع زاوجت بين نصوص التاريخ وفرضيات علم الاجتماع لتقتفي أثر المعلم الوردي.

٤٥. كلمات أرسـلها أسـتاذي الدكتور حسين محمد القهواتي لتقييـم علاقـة هـذا الجيـل المؤسـس مـن خريجـي دار المعلمين العالية يحتفظ الباحث بنسخة منها.

٤٦. للتفاصيل عن دور كمال مظهر أحمد في وضع الفرضيات في التاريـخ، أنظـر: محمود عبـد الواحد محمـود القيسي، كـمال مظهر أحمد "مؤرخ جمع الرحيق وصنع العسـل"، في كتاب: وقائع احتفالية تكريم المؤرخ والمفكر المسـتنير الأسـتاذ الدكتور كمال مظهر أحمد، اعداد وتحرير: كريم صبـح، ط١، بغـداد، مؤسَّسـة ثائر العصامـي، ٢٠١٤، ص١١١-١٢٠.

Kamal Mudher Ahmed" The 20th Century" Historian who dreamt of Homeland collects the Arabs and the Kurds

Professor Mahmoud A.M. Al-QAYSI

College of Arts-University of Baghdad

Abstract

This paper attempts to study one of the prominent historians of the 2nd generation in Iraq. It is a study of the Iraqi academic historian, Kamal Mudher Ahmed, and his contributions in the Iraqi history. The paper dealt with Mudher's publications, articles, and analyzed their contents to confirm that he was one of the great historians of the 2nd generation who established a new approach to understand the Iraqi history in light of the World History". Mudher has developed the new approach of historiography depended on the interdisciplinary methods. The work is recalling the 2nd anniversary of his death in Marchm2021.